مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع والعشرون– آب ٢٠٢٣–محرم ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

أثر التشريع القرآني في بناء الفرد والمجتمع

م. فيصل هادي عبدالله
الجامعة الاسلامية – النجف الاشرف

القرآن الكريم دستور الاسلام الخالد ؛ بل هو دستور البشرية جمعاء بمختلف قومياتها ، وأعراقها ، وثقافاتها ، من حين نزوله الى ان يرث الله الارض ، ومن عليها ، لاتضاهيه في احكامه ، وتشريعاته - من حيث الشمول ، والسعة ، والعدالة والانسانية - كل ما سنت البشرية من شرائع ، ودساتير، وقوانين ، ونواميس وضعية في شتى بقاع العالم شرقيها ، أو غربيها ، وقد سبقهم بتشريعاته الحضارية ، ونبأهم عن أشياء كثيرة قد توصلوا الى بعضها – اليوم - بعد تجارب مريرة ، وكفاح مستمر ، وخبرات متراكمة وكان الاخبار بها حينها - في مجتمع تسوده في الغالب الامية ، والجهل ، والتفكير الساذج ، والبساطة في كل شيء – يعد عند غير المعصومين لغزا محيرا ، وهي في الحقيقة الدليل القاطع على انه آت من وراء الغيب ؛ وقد تحقق من نظرياته العلمية الكثير، وأثبتت الاكتشافات الحديثة الكثيرة التي ذكرها وتعد اليوم وليدة النهضة ، والتطور العلمي ، وتوصف بانها عصرية نابعة من واقع العصر صدق دعواه ، كما ان القرآن قد شرع لهم من النظم الراقية التي حفزت ذلك المجتمع الذي تغلب عليه صفة البداوة على تأسيس حضارة جديدة شهد لها العدو قبل الصديق ، وهي تتفوق على ارقى الحضارات الى يومنا هذا ؛ فلو سأل سائل مالذي يميز النظم والتشريعات القرآنية عن الدساتير، والتشريعات ، والنظم التي جاء بها البشر ، ويأتي الجواب ان هذه النظم باجمعها ، ومهما طال بها الزمن فانها زائلة ، وحضاراتها آيلة الى السقوط ، وأنها وقتية ، ومتغيرة ، ولا تستطيع ان تكتسب صفة الثبات ، والبقاء ، بينما القرآن الكريم فهو أزلي الوجود خالد البقاء ، لن يزول ما بقيت السموات والارضين ؛ لأن ماجاء به هو الحكمة ، والصواب ، والحق من عنده (سبحانه وتعالى) ، وان ماجاء به الناس هو الباطل ، وهذه الشرائع - مهما قيل ، او يقال عنها - قد يعتورها النقص في الكثير من جوانبها ، وغالبا ماتنشأ هذه الشرائع مقيدة بالحاجات الآنية لبيئة معينة ، أو جهة معينة ، ونظرتها آنية فهي لاتنظر الى المدى البعيد ، ناهيك عن انها لاتنسجم مع جميع البيئات ، وأمر آخر مهم هو قصور نظرة المخلوق - مهما كان – عن ادراك الكليات والجزئيات ، ولا معرفة كافة الحقائق ، بل جل ادراكه للظواهر المحسوسة والتي يعتقد بنفعيتها عن طريق الظن ، والتخمين ، والحدس ؛ بينما القرآن الكريم ينظر من وراء عالم الغيب الى الكليات ، والجزئيات ، والجواهر ، والحقائق ، ونظرته تنبع من اليقين ؛ لأن علمه (تعالى) سابق لوجود الاشياء ، ومحيط بكافة جوانبها المختلفة ، وتفصيلاتها ، والحقيقة ان ما يأتي من النقص- وهو الانسان - فهو النقص بعينه ، وان مايأتي من الكمال- وهو الله - فهو الكمال بعينه ، وان التشريعات البشرية ترتبط دائما بحلقة من حلقات السلسلة البشرية المتشعبة والتي ربما لاتصلح لغيرها من الحلقات الأخرى ، وغالبا ماتكون متأثرة بالمشرع ، ومزاجه الشخصي ، أومعتقده الديني ، او الفكري ، أو الأخلاقي ، او مصلحته الشخصية ، او القومية ، او العرقية ، او الاثنية ، بل حتى جنسه ، وغيرها من المؤثرات ؛ فتحتاج هذه القوانين الى اعادة النظر فيها ، واعادة تقويمها بين الحين ، والحين بعضها ، او كلها ؛ لأنها لما كانت خاضعة الى مامر ذكره من المؤثرات الحتمية ؛ فانها من الاستحالة ان تظل مناسبة لكل العصور ، او أن تكون صالحة لجميع البشر ، ولعلة اخرى هي ان اكثر القيم والمعايير الانسانية غير ثابتة ؛ بل وتتبدل من عصر الى عصر ؛ فما كان صالحا لعصر فانه بالضرورة لايصلح لعصر آخر ؛ فكلما تقادم بها العهد فانها لاتعود ملائمة للمرحلة التي تليها ؛ لكثرة ما يطرأ على الحياة من تبدلات ومتغيرات ، وما يستجد فيها من شؤون، ومتطلبات يفرضها

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع والعشرون– آب ٢٠٢٣–محرم ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

التطور، والجدة الصفتان الملازمتان للحياة ؛ فتصبح قاصرة عن تلبية حاجات المراحل اللاحقة ؛ لاختلاف مرحلة تشريعها ، وظروفها ؛ فتعد غريبة عن متطلبات الازمنة التي تليها ؛ فلذا تحتاج كل حقبة زمنية الى تشريعات تتلائم وطبيعتها البيئية الجديدة سواء كانت اقتصادية ، او اجتماعية ، او سياسية ، وتلك الحقيقة قد اثبتتها الواقائع ، والتجارب الانسانية في المجتمعات الشرقية ، او الغربية فلو اخذنا الجانب الاقتصادي كتشريع من التشريعات الانسانية على سبيل المثال ، ونتأمل في كل الطروحات التي توصل اليه الفكران الشرقي ، او الغربي في هذا الصدد من افكار ، ومعتقدات ، وانظمة ، وقوانين ؛ فلا نجد غير الخطل في الرأي ، والاعادة ، وتكرار التجارب الفاشلة ، ناهيك عن كثرة الاخطاء ؛ والامل يحدوهم لعلهم قد يتوصلوا الى الصواب ، او الى قانون مرض – ولو الى حين من الدهر - فلحل المشكلة الاقتصادية طبق الغربيون المنهج الراسمالي نظام الملكية الفردية الخاصة ، وطبق الاشتراكيون نظام الملكية العامة ملكية الدولة ، ولم ينجح كلا المنهجين في معالجة مشكلات الانسان الموضوعية : الاجتماعية ، والنفسية ، والاقتصادية ، والفكرية ، وغيرها ، ولم تستطع تلك النظم اشباع رغباته الذاتية ، وظلت تلك المجتمعات تعاني من الفوضى ، وتفاقم الازمات ، والمشكلات المتنوعة ، ومايرافق ذلك من تدهور وتخبط على كافة الاصعدة ، فغالبا مايؤدي تفاقم هذه المشكلات الى شعور الانسان بالاكتئاب ، والحيرة ، والاحباط ؛ لذلك نسمع ونقرأ عن كثير من حالات الانتحار نتيجة شعور الكثير من ابناء تلك المجتمعات باليأس المطبق ؛ نتيجة ايغالهم في جوانب الحياة المادية وابتعادهم عن الجوانب الروحية ، ويظل هذا الشعور القاتل يطاردهم دون ان تنتهي معاناتهم فقد تطول ، او تقصر ؛ فالاشتراكية حرمت الفرد حقه الشرعي في التملك ، وجعلت كل شي بيد الدولة ، وحرمته حق التملك ، وحرمته ايضا حتى ابسط مقومات حريته ، وهو التمتع ، والتنعم ، بوسائل الزينة والتي هي حاجة نفسية داخلية تستحوذ على اهتمام الانسان ، وتدعوه الى تلبيتها خاصة عند المرأة ؛ فالمرأة في الاتحاد السوفيتي السابق كانت محرومة من وسائل الزينة ، ومنها الحلى الذهبية باعتبار ان ذلك من الوسائل الكمالية التي لاتقدم نفعا للانسان ، وتلحق ضررا بالاقتصاد العام ، بينما هو حق طبيعي منحته اياها الطبيعة ، والفطرة ، والاحساس بالجمال ؛ ناهيك عن حرمانها من غيره من المعادن ، والاحجار الكريمة فكل ما تستطيع التزين به هو اقتناء طاقم من الكهرب الروسي ، او البولوني : (قلادة ، وخاتم ، واقراط ، واساور) ، بينما التشريع القرآني لم يحرم المرأة ، ولا الرجل على حد سواء من التمتع بكل وسائل الحلال ؛ شريطة ان لايكون في ذلك افراط ، او اسراف ؛ فيعد ذلك تبذيرا ، وخروجا على الحكمة ، والتعقل :((قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة)) [١] .

وان بعض العقلاء قد قسم احتياجات المرأة الى قسمين : ضرورية ، وغير ضرورية فالضرورية من قبيل المأكل ، والملبس ، والمسكن ، والدواء ، وغير الضرورية مثل أدوات التجميل ، والحمام ، والعطور، وأدوات الزينة ، وغيرها ، ويرى بعض فقهاء الامامية ان الزوج ملزم بتوفير هذه الامور للزوجة بالقدر الذي تقتضيه الاعراف والعادات)) [٢].

واستندوا الى قوله تعالى :((وعاشروهن بالمعروف)) [٣] .

وبالمقابل فان الرأسمالية جعلت الانسان عبدا للآلة ؛ فيقضي الساعات الطويلة في العمل ، وبمجرد حصول اي ازمة مالية لدى تلك الشركة ، او المصنع يقوم مالكها بتسريح آلاف العمال دون ان يمنحهم اية حقوق ، او تعويضات ، ويتم تناسي ان هؤلاء العمال قد قضوا من حياتهم سنوات طويلة في العمل المضني ، والشاق ، والذي لايتناسب وقدراتهم البدنية في اغلب الاحيان ؛ ولكن شظف العيش هو الذي يدفعهم الى ذلك ، وقد عالج القرآن الكريم هذه الاشكالية ؛ فأعطى كل ذي حق حقه ، وجمع بين الطريقتين

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع والعشرون– آب ٢٠٢٣–محرم ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

قبل ظهور هاتين النظريتين بحقب طويلة حيث جعل هناك ملكية عامة هي بيت مال المسلمين ، واشترط ان يكون بايد نزيهة ، وعادلة ، حتى لايتعرض المال الى الهدر ، والضياع ، مما يتسبب بانهيار المجتمع ؛ بسبب ضعف العامل الاقتصادي ؛ فالسفيه لايسلم ماله الخاص ناهيك عن المال العام الذي يخص الامة :((ولا تؤتوا السفهاء اموالكم)) [٤] .

وجعل لكل مسلم حقا في هذا المال ، واعطى كل فرد الحق في الكسب المشروع ، وحق التملك الشخصي ، والميراث بينما نلاحظ ان كلا النظريتين قد اثبتت فشلها لعدم تلبيتها متطلبات الانسان ، واكبر دليل على ذلك خروج الكثير من التظاهرات - في دول مختلفة - مطالبة بالحقوق ، والاصلاحات ؛ اما القرآن الكريم الذي هو منبع لكل حكمة ؛ فان تشريعاته أبدية وفيها الكثير من المطواعية التي اعطتها صفة الخلود والاستمرارية ، ومواكبة العصور ، والاحداث ، وهي مجردة من كافة المؤثرات الغريزية ، والأنا ، وغيرها التي لايستطيع البشر الافلات من اسر تأثيراتها ؛ ثم ان القرآن الكريم يأخذ بنظر الاعتبار المصلحتين الخاصة ، والعامة في الوقت نفسه : ((مافرطنا في الكتاب من شيْ)) [٥] .

ولأن تشريعاته صادرة عن حكيم خبير عالم بكل اسرار النفس البشرية ، وخفاياها ، وحاجاتها ، ولكل ما يصلح شؤونها ، ويعالج عللها النفسية ، والعقلية ، والفكرية والمادية صغيرها ، وكبيرها ، وهكذا في بقية جوانب الحياة الاخرى ، ونجد ان الحضارة الغربية قد امتهنت كرامة المراة ، وجعلتها وسيلة دعائية رخيصة ، وبالغت بالمتاجرة بجسدها ؛ بينما نجد ان الاسلام قد حفظ لها انسانيتها ، وصان كرامتها ، وبين القرآن الكريم ان كل مايصدر منه هو الخير بعينه كقوله تعالى : ((ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا)) [٦] .

فالقرآن الكريم قد وضع اجابات شافية ، وكافية لكافة الاسئلة التي تطرحها النفس البشرية مع معالجة ناجعة لكافة اشكالاتها ، وأدواء لكل عللها ، ولم يغفل مسالة صغيرة ، ولا كبيرة الا وقد تطرق اليها ، وعالج كل جانب من جوانب حياة الناس العقائدية ، والفكرية ، والنفسية ، والبيئية ، والاجتماعية ، والاقتصادية معالجة جذرية نابعة من حاجات الناس الفعلية آخذا بعين الاعتبار توافقها ، وملائمتها لطبيعة كل زمان ، ومعالجة اشكالاته ، ومشكلاته ، وكذلك تلبية حاجات كل أمة تبعا لثقافتها ، وموروثها القومي ، والحضاري اما غير القرآن فهو عاجز لامحالة عن تلبية حاجات الناس الحقيقية :((ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ماستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير)) [٧] .

وهذه القدرة العجيبة على مواكبة الزمان هي سر من اسرار خلوده ، وخلود شريعته والتي لايمكن للشرائع البشرية من ان تنسخها مهما أوتيت من أسباب ؛ وسبب آخر هو انها كاملة شاملة ؛ فلم تترك عذرا للانسان ليتخطاها ، ويتجاوزها الى غيرها لملأ الفراغات ، والثغرات :((ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)) [٨] .

فالقرآن قد تجاوز حدود الزمان ، والمكان ؛ لما في طبيعة تشريعاته من شمولية ، وعمق بحيث ينعدم في تشريعاته مبدأ التعارض مع طبيعة كل بيئة ، وكل زمان – شرط ان يجري تطبيق هذه التشريعات تطبيقا كاملا لا انتقائيا ، ومهما اختلفت كل امة عن غيرها من الامم ؛ لان نزعة القرآن عالمية : ((وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون)) [٩] .

علما انه لايوجد على ظهر الارض – اليوم - امة تطبق الشريعة الاسلامية تطبيقا كاملا ؛ بل ان هنالك امم ربما تستعير، او تتأثر ببعض التشريعات القرآنية ، او تجعل شيئا منها مصدرا لبعض تشريعاتها ؛ فالقرآن الكريم جاء ليوحد الناس ، ويجمع كلمتهم على التقوى :((ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون)) [١٠] فالاصل فيهم هو الوحدة قبل الاختلاف الذي هو طارىء فيهم :((كان الناس أمة واحدة)) [١١] .

وجعل معيار التفاضل بينهم التقوى :((ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير))[١٢] .

والناس يأبون ذلك ويصرون الا على الخلاف ، والاختلاف ، والفرقة ، ولما كان القرآن الكريم معجزا في جوانبه جميعا ؛ فقد اخبر عن أحداث كثيرة وقعت ، او سوف تقع – صنفت ضمن اعجازه الغيبي – لها صلة عميقة بواقع الانسان ، وحياته ، وهذه التشريعات تضمن له الامن ، والطمأنينة ، والاستقرار ، وتعد مفتاحا للسعادة التي ينشدها ؛ فقد ورد في الاثر قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بصدد مافي القرآن الكريم من موضوعات واسرار تحتاج الى الكشف عنها وتدبرها : ((مافي القرآن من آية الا ولها ظهر وبطن)) .

سئل الامام ابو جعفر الباقر (عليه السلام) عن هذا الحديث المأثور عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فقال : ((ظهره تنزيله ، وبطنه تأويله ، منه ماقد مضى ، ومنه مالم يكن ، تجري كالشمس والقمر)) [١٣] ، وقول امير المؤمنين علي (عليه السلام) :((ذلك القرآن فاستنطقوه ، ولن ينطق بكم ، اخبركم عنه ، ان فيه علم مامضى ، وعلم ما يأتي الى يوم القيامة ، وحكم مابينكم ، وبيان ماصبحتم فيه تختلفون ، فلو سألتموني عنه لعلمتكم)) [١٤] ، وكذلك لأهل البيت (عليهم السلام) اقوال كثيرة في هذا الصدد ، منها قول الامام الصادق (عليه السلام) : ((ولو أن الآية اذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ، ماتت الآية ، لما بقي من القرآن شيْ ، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ، مادامت السموات والارض ، ولكل قوم آية يتلونها ، وهم منها من خير أو شر))[١٥] ، ومنها قوله ايضا (عليه السلام) : ((كتاب الله فيه نبأ ماقبلكم ، وخبر مابعدكم ، وفضل مابينكم ، ونحن نعلمه))[١٦] وهذا يعني ان القرآن الكريم لم يختص بزمن نزوله :(القرن السابع الميلادي) ، ولا ببيئة نزوله: (الجزيرة العربية) لوحدها؛ فقد ذكر القرآن ضمنا بعض اخبار ، وأحداث الامم البائدة قبل الاسلام ، وبعده ؛ ولكن باسلوبه الموجز عن طريق الاشارة ، او التلميح ، او التصريح كما انه نوه ببعض الشرائع التي نزلت قبل الاسلام ، ونستطيع القول ان هناك جامعا بين كل هذه الشرائع : هو انها كلها تحمل سمة التبليغ للناس ، والأخذ بأيديهم لعبادة الله عزوجل الذي لاخالق غيره ، وتدعو الى الاستقامة في السلوك ، وتذكرهم بمبدأ الثواب ، والعقاب التربويين الذين يكونان جزاء لكل فعل يقوم به الانسان صغيرا ، او كبيرا ؛ فان احسن الانسان احسن اليه وان اساء وجد جزاء اساءته ؛ كي يتحقق مبدا العدالة الالهية كاملا غير منقوص :((وكل صغير وكبير مستطر))[١٧]. اي كل مايصدر من هذا الكائن الذي اعده الله عزوجل لخلافة الارض :((واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة))[١٨] . بما وهبه من قدرات داخلية ، وخارجية تمكنه من عمارة الارض ، والعيش فيها بسلام من خلال تنظيم علاقته بربه من جانب ، وعلاقته بأخيه الانسان من جانب آخر ؛ فالخلافة في الارض هي محور الصراع بين النظرية القرآنية ، والنظريات المادية اذ من المسلمات ان المجتمع البشري يقوم على اسس ثلاث هي : (الانسان ، والارض والطبيعة ، والعلاقة القائمة بين الانسان ، والارض من ناحية ، وبين الانسان ، والانسان الآخر من ناحية أخرى) ؛ ((فعلاقة الاستخلاف هي التي تحول العلاقة بين الانسان ، والانسان من الندية ، والصراع على اساس المالكية ، والقدرة ، والهيمنة بين الانسان ، والطبيعة الى علاقة ايجابية تشعره بالاستخلاف ، والاستئمان ، ويوجه حركة البشرية بالضد من الكفر ، ويبعدها عن تأثير الشهوات ، والطغيان ، والشيطان حيث يفرق الانسان ، ويختلف))[١٩]. لذا جعل القرآن الكريم العلاقة بين الناس تقوم على مبدأ السلام ، والتكافؤ في الفرص :((وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان))[٢٠].

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع والعشرون– آب ٢٠٢٣–محرم ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

وقد جعل كل مافي هذا الكون من حيوان ، ونبات ، وجماد في خدمة هذا الانسان ، وملائما لفطرته ، وفي مصلحته كما تشير الآية الكريمة ، وغيرها: ((ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون))[٢١] .
ووفقه لترجمة الافكار التي يتوصل اليها ، وتحويلها الى أشياء نافعة : ((وسخر لكم مافي السموات ومافي الارض جميعا منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون))[٢٢].
ولم يتركه هملا بل كان في كل حين من الاحيان موضع لطف الله ، وعطفه من خلال ارسال الرسل ، وانزال الكتب التي تضم الشرائع التي تنظم حياته : ((رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما))[٢٣]. وشاءت حكمته ان يكون اتصاله بالبشر عن طريق الرسل الذين هم بشر منتجبون منتخبون يصطفيهم الباريْ (عز وعلا) لهذه المهمة الجسيمة كما يقول (عز وجل) :((الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس))[٢٤] .
ويتصل الوحي بهؤلاء الرسل بواحدة من الطرق التي حددتها الآية الكريمة : ((وماكان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء))[٢٥] .
ومع وجود العقل في الانسان يصبح اتصال البشر بخالقه عن طريقين داخلي غير مباشر لانشعر به الا بعد التأمل في الغاية من وجودنا وهو العقل المفكر المتدبر الذي يشعر الانسان بارتباطه بالخالق من جهة ، وبوجوده كذات ، وما يحيط بها من اشياء من جهة ثانية ، والاتصال الآخر الخارجي واضح هم الرسل ، وبقاء شرائعهم ، ورسالاتهم قائمة مع الايام ، والازمنة مع ما يعتورها من ضعف ، او قوة بحسب الظروف ، ومن خلال وجود هذين المحفزين الداخلي (العقل) ، والخارجي (الرسل) تكتمل مهمة التربية ، والاعداد : ((علم الانسان مالم يعلم))[٢٦] .
اي بعد ان خلق فيه كل الاستعدادات الفطرية ، وكل مستلزمات التربية ، وهيأ له القدرة على التمييز، واختيار الافضل ؛ ولولا ذلك لما استطاع الانسان تغيير القناعات التي آمن بها أيا كان تصنيفها (أفكار ، عقائد ، أعراف ، عادات ، تقاليد ، أخلاق ، مثل ...الخ) ؛ اذن الدور الكبير لهذه الاستعدادات التي تستقبل التوجيهات الالهية :((اناخلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ، انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا))[٢٧] .
فالرسل الذين يقومون بمهمة التبليغ جنسان :
الاول: الملائكة وهم وحي الله ، والمعلوم من آيات كثيرة أن جبريل (عليه السلام) هو المكلف بهذه المهمة والمؤتمن على اسرار العرش ، والوحي ، ونقل الوحي بكل أمانة : ((نزل به الروح الأمين))[٢٨] .
الثاني: هم من بني البشر الذين اصطفاهم الله (عزوجل) لهذه المهمة الخطيرة والصعبة ؛ لما فيها من صعوبات تعترض طريقهم في الابلاغ ، والتبليغ ، اخطرها انها تجعلهم في مواجهة قوية مع مجتمعاتهم التي ألفت نمطا متوارثا من المعتقدات ، والقيم المتأصلة في نفوسهم ، والنظم التي طبعوا بطابعها ، وحرصهم الدائم على بقائها دونما تغيير، ولما تحتاجه هذه المواجهة من مهارات ، وقابليات ، وصبر على المطاولة ، وكذلك القدرة على الاقناع ، وتحمل المشاق لاختلاف الناس في طبائعهم ، وأمزجتهم ، وطرائق تفكيرهم ، ولتعارض هذه الشرائع ، واصطدامها مع مصالح هؤلاء الناس الخاصة ذات النزعة التسلطية – عند الاغنياء منهم – النابعة من حب الذات ، والمحافظة على كيانها الفردي ، ومنافعها الشخصية ، ومميزاتها ، والجهل بحقيقة الدين ، والعقيدة عند الكثير منهم لاسيما المغلوب على امرهم من قبل المتسلطين عليهم من ذوي النفوذ ، ورؤوس الاموال من جانب آخر، وانقياد هؤلاء لهم اما تقديسا لهم

بسبب الفوقية ، والتسلط حيث يصنعون لهؤلاء هالة من القدسية، والتعظيم كما كانت هذه النزعة سائدة عند العرب قبل الاسلام ، من خلال اعتقادهم ان دماء الملوك تشفي من داء الكلب ، او انتفاعا بما في ايديهم من مصادر العيش ، وهذه المهمة الملقاة على عاتق الانبياء ، والرسل ليست باليسيرة كونها تتطلب قدرا كبيرا من الجهود ، والمؤهلات ، وهذه الشروط لاتتوفر الا فيهم (عليهم السلام) ، ومن ثم فان القرآن الكريم ؛ قد ذكر الغاية التي من اجلها قد خلق الخلق سواء كانوا من الانس ، ام من الجن وهي قوله تعالى :((وماخلقت الانس والجن الا ليعبدون ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين))[٢٩] .

اذن حددت الآية الكريمة الغاية من الخلق ، وحددت العلاقة بين الخالق ، وخلقه من كلا الثقلين المذكورين ؛ وهي علاقة تقوم بمجملها على التعبد ، والخضوع لمشيئته والانقياد له في الامور الاختيارية ، واللااختيارية ، ولكن ليس عن طريق الجبر؛ فالاختيارية عن طريق الوعي ، والتطوع الذاتي ، واللااختيارية فهي بالفطرة السليمة ان الروح متعلقة ببارئها ، ولتحقيق مبدأ الاطمئنان عند العبد انه عزوجل عدل مطلق لايصدر منه الظلم الذي هو صفة الضعيف ، لا القوي ، وقد وصف ذاته القدسية بالرحمن الرحيم ، اذن العلاقة اساسها اللطف ، والعطف الالهي ، وكما قال نبي الرحمة (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الله ارحم بالعبد من الام بولدها ، ودلت الاية الاخرى على الغاية العبادية نفسها من ايجاد الخلق قوله تعالى : ((ان كل من في السموات والارض الا آت الرحمن عبدا))[٣٠].

والظاهر من الآيات الكريمة ان الملائكة لهم شأن آخر وهم في فطرتهم مجبولون على الطاعة ، وعبادة الله فلا تصدر عنهم المعصية قط ، وهم جنس يختلف عن الجن لقوله تعالى : ((فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس كان من الجن ففسق عن امر ربه افتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا))[٣١] .

فالجن ايضا هم جزء من عملية التكليف ، ولهم شأن آخر ، لاعلم لنا به ، ولا بالكيفية التي يبلغوا بها درجات الكمال التي هي شبيهة - من حيث النسبية - بالكمال الانساني قال تعالى في شأن تكليفهم :((يامعشر الجن والانس الم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على انفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين))[٣٢] .

وواضح ان الانسان اذا اتبع هواه سيكون اداة طيعة بيد الجن فهم يسخرونه لتنفيذ كيد الشيطان من خلال تزيين الاعمال القبيحة لقوله تعالى :((ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس ، وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا اجلنا الذي اجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان الله حكيم عليم))[٣٣] .

فالكمال المطلق لله وحده ، والخلق مهما بلغت بهم السبل وارتفعت بهم المقادير ؛ فان الله هو الذي اوصلهم بمنه ، وفضله الى تلك المقادير ، وهناك تفاوت ، و تفاضل – بحسب طبيعة الخلق – بين كمال الملائكة ، وكمال بني آدم وأنه فضل الانسان اذا كان ممتثلا للامر الالهي على الملائكة على الرغم من قوة التحدي الواقع على بني آدم من جهة السنخية ففي الحديث المروي : ((عن عبدالله بن سنان ، قال : سألت ابا عبدالله جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) ، فقلت : الملائكة افضل ام بنو آدم ؟ فقال : قال أمير المومنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) : ان الله ركب في الملائكة عقلا بلا شهوة ، وركب في البهائم شهوة بلا عقل ، وركب في بني آدم كليهما (علل الشرايع) فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم))[٣٤] .

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع والعشرون– آب ٢٠٢٣–محرم ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

وتبعا لخلقهم هذا فقد أوكلت لهم الحضرة القدسية مهاما اعلى من مهمات البشر وامورا يعجز البشر عن القيام بها كونها تعد خرقا للعادة وهي خارجة بمجملها عن ارادة الانسان ، وقدرته :((وقال لهم نبيهم ان آية ملكه ان ياتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين)) [٣٥] .

وهم جند الله الغالبون في تحقيق النصر للمؤمنين على الكافرين – باذن الله - وفي تنفيذ العقوبات الالهية على من استحق عليه العذاب من الاقوام الظالمة لانفسها :((فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها))[٣٦] .

ولكننا لانعرف الكثير عن خصوصياتهم سوى ماجاء عن طريق الاخبار القرآني ، والحديث النبوي الشريف ، واقوال الائمة المعصومين (عليهم السلام) ، وكل مانعرفه عنهم انهم كائنات نورانية محجوبون عن ابصارنا قد جردوا في اصولهم التكوينية من الشهوة ، والغرائز ، والطباع الآدمية ، اما الانسان فالاصل في تكوينه انه مركب من الروح والمادة ، وهما قوتان متضادتان تنزع كل منهما بالانسان الى اتجاه مغاير عن طبيعة الاخرى مما يجعله في موقف المضطرب المتحير المتردد ، والمتقلب بين الحالتين ، فلولا وجود قوة حقيقية قادرة على حسم ، وادارة الصراع في ذلك ، وجعله قادرا على خوض الاختبار بنجاح ، وتوفيق ، هاتان القوتان مختلفتا السنخ احداهما توصف بالايجابية ، والاخرى بالسلبية ، وحلا لهذا الاشكال يكون في الاعداد الروحي ، والنفسي الذين يؤثران على ترويض الانسان ، وتهذيبه ، والسيطرة على غرائزه ، ويمنحانه حالة التوازن المطلوبة ؛ لذا فان هناك عامل داخلي مهم يعطيه القدرة ، والاستعداد ، والاستطاعة وهو العقل الذي من خلاله يتمكن من التمييز، والابصار ، والادراك ، والارادة وهي التي تحقق صلاحية هذا الجوهر لقيادة هذا البدن بعد حصول الموعظة الحسنة من الخارج وتسليمه بالاخذ بها وقبولها ، وتنفيذ رسالتها وتمثلها واعتبارها قيما عليا ، ومحكما سليما للتصرف ، والسلوك فهي كالنور الذي يذهب بالظلمة ، ويستخرج دفائنها من اعماق النفس ، وهذا العقل يمثل ايضا الوعي واختيار الافضل ، وباعتبار ان الجزء الآخر المتبقي من الانسان هو جسد اعمى يتخبط في ظلمات الغرائز ، والانسياق خلف الشهوات ، والمتع الحسية البهيمية :((وما يستوي الاعمى والبصير ...)) [٣٧] .

وفي حال عدم وجود رادع له ، وقائد يقوده نحو الفضيلة ، والخير سيقع في المحذور لامحالة ؛ اذن العقل هو صمام الامان ، والنور الذي يستنير به الانسان في افعاله ، والا فالامر سيؤول به في نهاية المطاف الى الوقوع في الهاوية ، كما ان غلبة السنخ الاول الروحي على السلوك يعني الهداية ، والرشاد ، وارتقاء الانسان درجة أعلى من درجات الملائكة كما مر بنا قبل قليل ، وسيطرة السنخ المادي يعني غلبة القوى البهيمية التي تجعله أدنى منزلة من البهائم ؛ كما تصف الآية الكريمة أولئك الذين استسلموا لأهوائهم ورغبات انفسهم : ((ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون)) [٣٨] .

وكذلك الآية الاخرى التي تصف مصيرهم الذي ينتظرهم في نهاية المطاف : ((ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم اعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالانعام بل هم اضل أولئك هم الغافلون))[٣٩] .

فالنفس لوجود الغرائز ، والطباع في الجسد ربما يكون انجذابها الى سنخها المادي ، والغريزي اقوى كما تشير الآية الكريمة اعترافا من البشر بهذا الضعف : ((وما أبرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء الا مارحم ربي))[٤٠] .

ولكن الله سبحانه وتعالى خص هذا المخلوق بالكثير من لطفه وعنايته ، وفضله على كثير مما خلق كما تشير الآية الكريمة : ((ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا))[٤١] .

ويتضح هذا التكريم في ايجاد القوة الادراكية التي يتمتع بها هذا المخلوق عن طريق العقل الذي أودعه فيه الله (عزوجل) ، وكما ورد أيضا في الحديث المروي ((عن محمد بن مسلم عن الامام الباقر (عليه السلام) قال: ((لما خلق الله العقل استنطقه ، ثم قال له اقبل ، فأقبل ، ثم قال له أدبر، فأدبر ثم قال : وعزتي وجلالي ماخلقت خلقا هو أحب الي منك ولاأكملتك الا فيمن أحب اما اني اياك آمر ، واياك انهي ، واياك أعاقب ، واياك اثيب))[٤٢] ؛ فايجاد مبدأ الثواب والعقاب مقرونان ومرتبطان بوجود العقل وبموجبه وعن طريقه يجري التكليف ، وهذا العقل يمنحنا القدرة على ادراك صفات المكلف (مبنية على الفاعل) وهو الله عزوجل ويجعلنا نلزم نفوسنا بالاعتقاد بأنه : ((يجب ان يكون حكيما ، مأمونا من فعل القبيح ، والاخلال بالواجب ، ليعلم انتفاء وجه القبح عن هذا التكيف))[٤٣] ؛ فلذا يكون من المسلم به : ان ماجاءت به الشرائع جميعا هو في صالح الانسان ، وان الله تعالى – من اجل تحقيق هذه الغاية – لم يترك عباده هملا بل كان من عظيم رحمته ان بعث اليهم الرسل كما في قوله تعالى : ((رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما))[٤٤] .

فلذا يكون دور العقائد – بلا شك – تربويا وتعليميا وتهذيبيا الى جانب كونها الباعث على الهداية ، والاستبصار : ((ان العقيدة لها اثر نفسي على مستوى البناء الحضاري الذي تنشده الامم))[٤٥] ، وهذا الجانب المهم مالتفت اليه الشرائع الوضعية ، وتبنته الفنون ، والآداب كرسالة تربوية ، ومهمة انسانية ، وغاية نبيلة يسعى العقلاء الى تحقيقها ؛ لما لها من دور فعال في بناء المجتمع بناء اخلاقيا كما يقول الشاعر أحمد شوقي :

((انما الامم الاخلاق مابقيت

فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا))

اذ لايمكن للانسان بلوغ درجات الكمال الرفيعة دون ان يكون هنالك دور للعناية الالهية ، ووجود دور فعال للعقل المميز ، وهذا العقل له مزيتان : الاولى فطرية

والاخرى مكتسبة فمن خلال الاولى ادراكه الحسن والقبح الذاتي في الاشياء ، والافعال ، وهذا ثابت حتى في القبائل البدائية التي لم تصلها الحضارة ، والتمدن ، والعلم ، والمعرفة، والشرائع السماوية ؛ فانها تدرك بالفطرة ان هناك اشياء جميلة، وهناك اشياء قبيحة ، وهناك قوى خير ، وقوى شر ، بل ان هناك في الحيوانات المنزلية من يدرك بالغريزة الخطأ ، والصواب ، فالقطة التي تألفك في المنزل ، ولاتنهزم منك ؛ ولكنها اذا سرقت منك قطعة من اللحم ستنهزم منك في ذلك اليوم ادراكا منها انها ارتكبت شيئا غير صحيح بحقك ، اما المزية الثانية فهي التي تمنحه التكامل النسبي عن طريق قبوله مايوفر له الاعداد من معطيات معرفية ، واسسا تربوية كفيلة بتصحيح مساره ، وتغيير سلوكه نحو الافضل : ((اذن فالعقل انما يتمكن الحكم على الافعال الاختيارية وتقويمها ، فيما لو كان مطلعا على كمالات الانسان ومستوياته ، وكان عالما بان الانسان اي موجود هو ، وبالابعاد التي تمتد اليها حياته ، والمرحلة الكمالية التي يمكن للانسان بلوغها ، اي يلزم على العقل ان يعلم بابعاد وجود الانسان والهدف من خلقه))[٤٦] ، وهذه الغاية واضحة كما مر بنا قبل قليل من انه قد خلق للعبادة ، والعبادة هي بحد ذاتها اعداد ، وتربية للانسان ، وقد بدأت الكثير من التيارات الفكرية والسياسية التي كانت تنظر الى الدين ، والعقائد نظرة سلبية ، او تجاهلية تعيد النظر في حساباتها القديمة تلك ، وتحاول البحث عن خط رجعة يربطها بالحياة الروحية فهي عبارة عن عملية مصالحة مع الدين ، والعقائد الروحية فأدركت : ((ان الانسان لايستطيع ان يعيش في فراغ من العقيدة ، وان اي جديد من النظم والمذاهب مهدد بالخطر ، اذا ظل يتجاهل هذه الحقيقة الانسانية التي تقرر ان الانسان ليس مادة فحسب ! وهو قد يعيش في ظل احدث النظام وأفضل الاوضاع))[٤٧] ؛ فاذا ما تمت

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع والعشرون– آب ٢٠٢٣–محرم ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

تهيأته تهياة كاملة ضمن الاجواء الروحية فان ذلك – لامحالة – سيصلح امره في الدنيا ، ويجعله سعيدا فيها ، ويبعده عن العذاب الذاتي ، وهو تأنيب الضمير ، ووخزه (الأنا العليا) ؛ لأنها تمثل الرقيب الداخلي الذي يحاسبه ، ويقاضيه كلما جنح عن جادة الصواب حسبما فطره الله على ذلك ، كما انه يؤهله في نهاية الامر الى الانتقال فيما بعد الموت الى العالم الآخر (عالم المثل والشهادة) حيث يخلد سعيدا مكرما ؛ بعد ان يكون قد اجتاز عتبة الامتحان في حياته الاولى ، وحقق النجاح في ذلك ...

---

[1] الاعراف : ٣٢ .
[2] ينظر المراة خلقها ودورها الاجتماعي ، دراسات على ضوء القرآن الكريم ، مجموعة مؤلفين ، ت: احمد حسين بكر ، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي ، ط: ١، ٢٠١٦، بيروت – لبنان ، ١٥٨-١٦٠
.
[3] النساء : ١٩ .
[4] النساء : ٥ .
[5] الانعام : ٣٨ .
[6] الاسراء : ٩ .
[7] فاطر : ١٤ .
[8] النحل : ٨٩ .
[9] المؤمنون : ٥٢ .
[10] الانبياء : ٩٢ .
[11] البقرة : ٢١٣ .
[12] الحجرات : ١٣ .
[13] بصائر الدرجات ، للصفار ، ١٩٦ .
[14] الكافي ، الكليني ، ابو جعفر : محمد بن يعقوب الكليني (ت: ٤٤٩ ه) الاصول من الكافي ، دار الكتب الاسلامية : طهران : ١٣٨٨ه، ١ ، ٦١ .
[15] تفسير العياشي ، ١ / ١٠ .
[16] المصدر نفسه .
[17] القمر : ٥٣ .
[18] البقرة : ٣٠ .
[19] ينظر المجتمع الانساني في القرآن الكريم ، شهيد المحراب ، آية الله العظمى محمد باقر الحكيم ، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم ، مطبعة العترة ، النجف الاشرف ، ٢٠٠٦ ، ١٠٨- ١٠٩ .
[20] المائدة : ٢ .
[21] البقرة : ١٦٤ .
[22] الجاثية : ١٣ .
[23] النساء : ١٦٥ .
[24] الحج : ٧٥ .
[25] الشورى : ٥١ .
[26] العلق : ٥ .
[27] الانسان : ٢-٣ .
[28] الشعراء : ١٩٣ .

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع والعشرون– آب ٢٠٢٣–محرم ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

[٢٩] الذاريات : ٥٦- ٥٨ .
[٣٠] مريم : ٩٣ .
[٣١] الكهف : ٥٠ .
[٣٢] الانعام : ١٣٠ .
[٣٣] الانعام : ١٢٨ .
[٣٤] وسائل الشيعة ١١ : ١٦٤ ، باب ٩ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه : حديث : ٢ .
[٣٥] البقرة : ٢٤٨ .
[٣٦] الاحزاب : ٩ .
[٣٧] غافر ٥٨ .
[٣٨] الانفال : ٢٢ .
[٣٩] الاعراف : ١٧٩ .
[٤٠] يوسف : ٥٣ .
[٤١] الاسراء : ٧٠ .
[٤٢] الكافي/ ١ : ١٠ .
[٤٣] الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد ، للشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت : ٤٦٠ ه) ، دار الاضواء ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٦ ه ، ط : ٢ ، ١٠٨ .
[٤٤] النساء : ١٦٥ .
[٤٥] نظرات في عقيدة الانسان المسلم ، تأليف عبد الرزاق فرج الله ، مركز الامير لاحياء التراث الاسلامي ، المطبعة ، كيميا ، ١٤٢٧ ه ، ط : ١ ، ١٠ .
[٤٦] دروس في العقيدة الاسلامية ، المؤلف الاستاذ محمد تقي اليزدي ، مؤسسة التأريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ٤٨ .
[٤٧] القرآن وقضايا الانسان ، د، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ، دار المعارف ، د: ت ، ٢١٦ .